

الأسرة كوحدة اجتماعية

لحضرة صاحب السعادة عبد القادر الجبال باشا

المستشار الاقتصادي لبك المندفيل ايرراسى

تبني الأسرة على قاعدتين أساسيتين اعترف بهما كل تشريع في العالم أجمع وإن اختلفت البلدان في تفسيرهما . فالقاعدة الأولى هي ارتباط الرجل والمرأة بالزواج . والقاعدة الثانية هي سلطة الوالدين على الأبناء ولا سيما سلطة الأب .

وهناك أنواع شتى من الأسر أهمها أربعة :

النوع الأول هو الأسرة التي تقوم على أساس تحميم الزواج بين أفراد القبيلة الواحدة ولكنها تحرم في الوقت نفسه الزواج بين أفراد العائلة نفسها كما هو واقع فعلا الآن بين قبائل أستراليا الحاليين .

والنوع الثاني هو الأسرة التي تقوم على أساس زواج المرأة بعدة رجال في وقت واحد كما نراه في بلاد التبت بآسيا .

والنوع الثالث يقوم على أساس تعدد الزوجات للرجل الواحد كما نراه في بعض البلاد الشرقية وفي جماعة أطورمونس في الولايات المتحدة الأمريكية .

والنوع الأخير هو الأسرة التي تقوم على ارتباط الزوج بزوجة واحدة .
ويختلف مركز المرأة عند الأمم باختلاف وجهات نظر هاته الأمم إلى الزواج وماهيته .
واكتفاء الرجل بزوجة واحدة هو أشرف أنواع الزواج وأسلمها عاقبة في قيام الأسرة على أسس قوية محترمة .

يجب أن ناريخ مصر القديم في عهد الفراعنة احتفاظ الأسرة المصرية بكيانها ووحدتها أكثر منه في أية دولة أخرى . كما يخبرنا بأن السلطة في الأسرة وإن كانت للأب وتنقل بعد وفاته إلى أكبر أبنائه إلا أن الزوجة الشرعية كان لها في الوقت نفسه مركز ممتازا ونفوذا كبيرا توارثته منذ سريان النظام الذي يعبرون عنه بالـ Matriarcale أي نظام انتقال الميراث بعد وفاة الأب إلى أكبر بناته وليس إلى أكبر أبنائه . هذا النظام جعل للزوجة مركزا يضارع مركز الزوج ، كما كانت حياة الأسرة المصرية في ذلك العهد قائمة أيضا على تبادل المحبة والاحترام بين أفرادها ، كما تشهد بذلك النقوش والكتابات الهيروغليفية التي نراها على الآثار المصرية القديمة ، فكثيرا وكثيرا جدا نرى الجملة الآتية منقوشة على

أحجار مقابرهم وهى : "لقد كنت محببا لدى أبى - مكرما لدى أمى - معززا لدى إخوتى" -
كما نرى صورة العائلة منقوشة على الجدر يتوسطها الرجل تحيط به زوجته وأولاده فى محبة
وعطف مما يدلنا على ما كان للأسرة من شأن فى ذلك الوقت . أما إبان قيام الدولة
الرومانية القديمة فقد جاء تشريع الإمبراطور جوستيان واعترف للزوجة بحق الحلول محل
زوجها بعد وفاته فى أكثر حقوقه بقطع النظر عن نظام الميراث الذى كان متبعا وقتئذ
والذى بمقتضاه كان الميراث يوزع بين الأولاد والزوجة بنسبة معينة .

وجاء الدين الإسلامى الحنيف فرفع عن المرأة ظلما كبيرا كانت تنه تحت ثقله ، واعترف
لها باستقلالها المادى عن زوجها ولكنه احتفظ بقوامة الأسرة للرجل .

أما فى القرن التاسع عشر وأواخر القرن العشرين فكان التشريع الغربى الذى ينظم
الأسرة يقوم على أساس عدم الاعتراف بالطلاق وعلى النص على سلطة الأب على الأسرة .

وفى وقتنا هذا نرى ميلا كبيرا لدى المشرع للتدخل فى شؤون الأسرة وتسهيل الطلاق
بين الزوجين إلى مدى بعيد والحد من سلطة الأب مستعاضا عنها بسلطة الدولة وذلك تحت
ضغط المبادئ الاشتراكية الحديثة التى تنفشت فى العالم أجمع ، وتزداد يوما بعد يوم ، وهذه
الثورة الحديثة فى المبادئ لم يمحض طليها الوقت الكافى بعد للحكم لها أو عليها ، ولكننا فى مصر
لم نزل بعيدين عنها نوعا ما ، ولم يجار المشرع المصرى زميله الغربى فيما نزع إليه هذا الأخير
بل نراه يسير بخطى وثيدة فى هذا المضمار ، متباعدا ما أمكن عن المسائل التى لها تماس
بالدين وأصوله وأحكامه وحسنا يفعل .



تتكون الأسرة من الوالد والأم والأولاد وبعض من هم فى حكمهم وعلى كل منهم
واجبات وله حقوق ، ولعلنى لا أكون مبالغا إذا قلت إن الأم هى ركن هام فيها ، فعليها
تقع أعظم التبعات ، وعليها يجب أن يكون جل الاعتماد فى إعداد نسل صالح قادر على تحمل
المسئوليات ، ومتى كان فى استطاعة الأم إعداد أولادها منذ الصغر للكفاح ، والنجاح
والحياة . وإدارة دفة بيتها بعقل وإحكام ، استطاعت أن تنتج لنا وحدة متمية مهيئة لاستقبال
الحياة بثبات وإعداد بالنفس وثقة وأمل : فالأم هى التى تحفز الحزم وتبعث على الرجاء
وتوسع أفق الحياة أمام أولادها . وقد سمعنا جميعا عن تلك المرأة العربية التى بعثت أولادها
الأربعة إلى ساحات القتال بعد أن زودتهم بروح الثقة والإيمان بالله سبحانه وتعالى من أجل
الواجب والوطن . فلما جاءها الخبر بأنهم فقدوا جميعا فى ساحة القتال قالت : " الحمد لله

الذى شرفنى بقتلهم وأرجو الله أن يجمعني بهم فى مستقر رحته “ فضربت بذلك مثلاً سامياً للمرأة العربية ، ولله دَر من قال :

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

فعلى الأم يقع أكبر العبء فى تكوين الوحدة الاجتماعية التى هى أساس المجتمع ، ومتى كانت الوحدة سليمة كان المجموع سليماً معاً ، أما إذا دبت العلة إليها تسرب الداء إلى المجموع . فعظم أمره واستفحل وعز من أحله الدواء .

كذلك على الأب واجبات كبرى نحو أسرته فهو مسئول أمام الله والبشر عن سلامة عائلته وتوجيهها نحو الكمال ما استطاع لذلك سبيلاً . فإذا أردنا إصلاح الجماعة فيجب علينا أن نبدأ بإصلاح حال الأسرة ، ولا تصلح الأسرة إلا بإصلاح الوالدين كما رأينا . ويقول علماء التربية وعلم النفس إن المكان الحقيقى للتربية هو ” البيت “ فيجب العناية الكبرى بكيفية استعمال سلطة الوالدين على الأبناء ، فى السنين الأولى من حياتهم على الأخص ، فهى من أهم العوامل فى التربية الخلقية والاجتماعية وتكوين شخصية أفرادها ، بل إن البعض من هؤلاء العلماء يذهب إلى القول بأن الطفل يتكون بشكل نهائى فى هذه السنين الأولى . ومن هنا نعرف قيمة التربية المنزلية وضرورة حسن استعمال سلطة الوالدين .

كل هذا يظهر لنا بصورة جلية واضحة أهمية الأسرة كوحدة اجتماعية وضرورة العمل على تقوية هذه الوحدة بشتى الوسائل ، وضرورة العمل على تقوية روح التضامن بين أفرادها .

ولا بدلى من أن أتوه عن الفوضى فى مصر فى ألقاب الأسرة الواحدة ، فبعد أن كان لكل أسرة عندنا اسم يميزها عن غيرها أصبحنا وإذا بالأخوة والأشقاء كل منهم يحمل لقباً يختلف كل الاختلاف عن لقب أخيه وبيته . فترى الولد الأول فى الأسرة يدعى محمد حشمت مثلاً والثانى أحمد ذو الفقار والثالث سمير عصمت والبنت حورية بهجت ، ما لاضابط له بنا اسم ولقب الأب هو عبد الرحمن البحر جاوى . فلم كل هذه الفوضى ؟ ولم لا نفتدى بتركها حيث سنت قانوناً يحتم على كل أسرة اتخاذ لقب يتسمى به كل فرد من أفرادها ، ويميزها عن غيرها ؟ فهذا القانون الذى سنته تركيا فيه بعض الحفظ لكيان العائلة يشد من توأصرها ونحن أحوج ما نكون إلى قانون مثله .

كما أريد أن أوجه نظر أوفى الأمر فينا إلى ضرورة إحكام نظام المجالس الحسبية ونظام الوقف حتى يكون منه سياج مبيع للأسرة عند حلول كارثة وفاة الأب وأولاده قصر وحتى يكون منه نظام يدفع عن الأسرة جشع الطامعين فى مال القصر . حفظاً لكيان العائلة

وإحدى وأخذ، بالنظام الفرنسي بعد تدميره يتفق مع عدته، "قومية" أي تخم مجلس
لثة يجل محل القوصى "فى أرى فيه تحقيقاً من ولايات طام الأوسياء و التكثير
من الأحيان .

هل أحذر لأسر . عديدة ، وأحوجها إلى تصاهر الجهود لإصلاح شأنها ، هى أسرة
الفلاح المصرى ، فهى أسرة م تزل على المعطرة ، وم تتسرب إليها أكثر عيوب أسر أهل
المدن ولا يذهب أفرادها إلى دور السينما جماعات أو فرادى ولا يرتاد رجالها المقهى ساءت
طوالا ولا تبرج نسائها ، وما كان ذلك من زهد فى هذه الملاحى والمبذات ، بل سوء
حالتها المالية والصحية والروحية . هو لذى أحبرها على الاستسلام للقضاء ، والقنعة بالقدرة
اليسير — وكل مناقد تلمس عن قرب أو بعد يؤس هذه العائلات ، وما تعانيه من قسوة
الحياة والفقر المتناهى مما تنفطر له القلوب حزنا وأسى ، فسكنها قدر غير صحى ، وغذاؤها
تعاقة النفس ، ومشربها من ماء أسن كرىه ، وملبسها قد بلغ الحد الأدنى من البساطة
والحد الأقصى من القذارة ، لا تعرف من الحياة إلا التعب المتواصل الملقى ، لقاء بضع
درهمات تحصل عليها ، لا تسد رمقها ، وحياة تشبه حياة أدنى الحيوانات ، تنابها أمراض
شتى — فالبلهارسيا والانكلستوما وأمراض العين متفشية بينها وسوء التغذية يكاد يودى
بحياتها ، وترى هذه الأسرة مع الأسف الشديد ، تتناسل بكثرة مريعة ، مما يزيد فى انحطاط
مستوى معيشتها جيلا بعد جيل ، وهى أحوج ما تكون إلى دعاية فطنة منتظمة بينها لفهم
الضرر من كثرة النسل ، إذ لا سبيل إلى الوصول إلى هذا الغرض أى صبط النسل ، بالتشريع
لأننا نرى المشرع المصرى يتباعد ما أمكن عن التدخل فى مثل هذه الأمور
حشية اعتراض رجال الدين ، ولا شك بل ولا اختلاف فى أن النتيجة الحتمية المنطقية لكثرة
النسل فى أسرة الفلاح الذى يكون الغالبية العظمى لسكان البلاد ستكون توالى هبوط مستوى
معيشتها إلى حد مريع ، ولا تنس أن الحياة الثقافية عند الفلاح تكاد تكون معدومة ، بل وأن
كل ما يعرفه من أمور دينه إنما يتلقاه من مأذون القرية . الذى قد يكون جاهلا .
متعصبا بجهلته . هذه الأسرة هى حق وأولى عناية أولى الأمر منا ، إذ عليها قوم المملكة
المصريه ، ومما يتكون السواد الأعظم من وحدتنا لاجتماعية ، وكلما مادرت بالتهوص بها
كان ذلك ربحا لإصلاح حياتنا القومية ، فالخطر من هذه الساحة يهدد مستقبل البلاد
وكياناتها .

وحسب أن يعرف أن الثغافية العظمى من رجال الفلاحين قد ثبت عدم صلاحيتهم
للقدمة العسكرية ، نتيجة لما يعانون من سوء لتغذية وعدم توفر لشروط الصحية ، فى
السكن والملبس — ويأخذوا بعين رابطة شباب بدراسة حال الفلاح وأسرته فى أحد
مؤتمراتها القادمة إن شاء الله ، فهذه العناية واجبة علينا ، وهى دين فى عئقنا نؤديه إن عاجلا

وإن أحلا ، فلا بد والحالة هذه من العمل سريعا لانتشال هذه الأسرة من تلك الوحدة العميقة بتخصيص جزء وفير من مال الدولة سويا وبلا انقطاع لإصلاح شؤون الفلاح بدلا من إنفاقها في الكماليات ، نلتشى له المستشفيات بعدد واف ونبنى له البيت الصحي الذى يتفق ومطالبه ونوصل له مياه الشرب النقية إليه ونرفع من أجره اليومى ونسهل له سبل اقتناء شئ من الثروة يصلح به حاله ونغذيه بقدر متواضع من الثقافة ، فالموقف جد خطير والمستقبل من هذه الناحية مطمئنا مكفهر وفى يد القدر .

أريد الآن أن أرفع صوتى ليصل إلى كل محب لمصر — ليصل إلى آذن أولى الأمر منا — ليصل إليكم شباب البلاد ، عليكم عمادها ، ليخبرهم بأن العناية بأمر الفلاح وأسرته قد تأخرت إلى أكثر مما يجب وأن خطر انهيار كيان الأمة من جراء ذلك أصبح قاب قوسين أو أدنى وأن كل تهاون فى المبادرة بعلاج هذه الحالة يكون إجراما فى حق الوطن وأيما إجرام .

فلتلق الله جميعا فى أمر هذا البأس المسكين ولنرحم الفلاح يرحمنا الله .

عبد القادر الجبال

” إِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ “ .

(قرآن كريم)